السلطان مصطفى الثالث

فترة الحكم: ١٧٥٧- ١٧٧٤

السلطان العثماني السادس والعشرون

الألقاب والأسماء الشعرية: جِهانْكير (فاتح العالم) والغازي

اسم الأب: السلطان أحمد الثالث

اسم الأم: مهري شاه أمينة سلطان

محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه،
٢٨ يناير/كانون الثاني سنة ١٧١٧

العمر عند اعتلاء العرش: ٤٠ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: الاستسقاء،
والكرب الشديد/ ٢١ يناير/كانون الثاني سنة ١٧٧٤

مكان الوفاة وموقع القبر: إسطنبول، ودفن في مقبرة تحمل اسمه
بالقرب من مسجد "لالَه لِي" (مسجد التوليب) بإسطنبول

أبناؤه: سليم الثالث، ومحمد

بناته: شاه سلطان، وفاطمة سلطان،
وبَكْهان سلطان، وهبة الله سلطان

السلطان مصطفى الثالث جالسا على العرش. لوحة من رسم الفنان العثماني الأرمني رافاييل، وهي موجودة بمتحف قصر "طوب قابي".

Obeikandl.com

أصبح السلطان مصطفى الثالث السلطان العثماني الجديد بعد وفاة عثمان الثالث ابن عمه. وكان مصطفى الثالث محظوظا جدا حيث استفاد كثيرا من خبرة الصدر الأعظم الرائع "كوجا راغب باشا". وامتدت فترة السلام في عهده، والواقع أنه اتبع سياسة التسوية حتى يتمكن من الحفاظ على الدولة العثمانية من خوض الحروب بينما شُغلت أوروبا في حرب السنوات السبع، فلم تهاجم العثمانيين.

ثلاثون عاما من السلام مع روسيا تلت اتفاقية بلجراد لعام ١٧٣٩، لكن الطموحات الروسية المتعارضة مع المصالح العثمانية تسببت في جعل البلدين على حافة التقاتل عام ١٧٦٨.

حيث أرادت كاثرين الثانية ملكة روسيا أن تستولي على القرم والقوقاز، ترسلَ الأسطول الروسي جنوبا في البحر الأسود للمرور مجانا عبر مضيقي البوسفور والدَرْدَنيل العثمانيين، وتوسّعَ دائرة نفوذها في البلقان. وقد أظهرت في النهاية نيتها في القتال عندما تدخلت روسيا في شؤون بولندا الداخلية منتهكة بذلك معاهدة بروت. فرد العثمانيون بعد ذلك بفترة قصيرة.

استغاث البولنديون بالعثمانيين بعد أن نصّب الروس قائدا بولنديا يؤيدهم مكان الملك البولندي الراحل. وفي النهاية أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا بدعم صريح من الخان القرمي والفرنسيين عام ١٧٦٨. وعندما حاصرت روسيا قلعة خوتين عام ١٧٦٩ صدهم العثمانيون بفاعلية مما أكسب السلطان لقب "الغازي". ورغم ذلك فقد خسر الجيش العثماني المعارك التالية، وأصبح السلطان -الذي لقب بالسلطان الغازي في ذلك الوقت- محل انتقاد قاسٍ من جانب شعبه.

كان الرد الروسي على الإعلان العثماني للحرب سريعا؛ حيث اخترق الجيش الروسي والاشيا ومولدافيا واستولى على ميناءَي كيليا و"آقْ كَرْمان" اللذين يتحكمان في مصب نهري الدانوب ودنيستر، بينما أبحرت القوات البحرية الروسية من بحر البلطيق حتى مضيق جبل طارق وصولا إلى البحر المتوسط بفضل مساعدة البريطانيين.

وفي البحر المتوسط حرض الروس الموريين على التمرد ضد الدولة العثمانية. ورغم أن العثمانيين أخمدوا التمرد بنجاح أثار دهشة الروس فقد أحرق الروس الأسطول العثماني الراسي في مرفأ "جشمه ليماني" على الساحل الغربي الأناضولي. وكانت الأحداث نذيرة بما سيحدث لاحقا في عام ١٧٧٠.

وفي النهاية قام القائد الأعلى للبحرية العثمانية "حسن باشا جزايرلي (الجزائري)" بطرد الروس من البحر المتوسط وإجبارهم على تغيير مسار الحرب، لكن القوات الروسية استولت على القرم. ولم تتمكن القوات العثمانية من صد الروس في القرم، واضطُر السلطان إلى عرض الهدنة. وفي نفس الأثناء تسببت الانتصارات الروسية على

العثمانيين في إثارة غضب النمساويين كما مثلت تحذيرا لهم بسبب أهدافهم الإقليمية فيما يتعلق بوالاشيا ومولدافيا. غير أن الحرب استُؤنفت بعد أن أسفرت لقاءات السلام في بوخارست عن شروط بالغة الإجحاف لم يستطع السلطان قبولها. ثم استولت روسيا على سليسترا وروسجوق (Rusçuk). ولم تصل أية أنباء جيدة من ساحات المعارك، بل المزيد والمزيد من الخسائر، فأثّر كل ذلك على صحة السلطان. وتوفي السلطان مصطفى الثالث يوم الجمعة ٢١ يناير/كانون الثاني عام ١٧٧٤ بمسجد آيا صوفيا أثناء استماعه لآذان صلاة الجمعة.

تصف السجلات التاريخية السلطان مصطفى الثالث بأنه كان شخصا نزيها وكريما ومهذبا وخيّرا وسخيا. وكان مسلما ملتزما حيث كان يؤدي صلاة الفجر متنكرا بمسجد آيا صوفيا مع عموم المصلين. وكان مهتما تماما بمصلحة شعبه؛ فقام بتنظيم الضرائب المفروضة على رعاياه على نحو مريح بالنسبة إليهم. وكان منظّما ومقتصدا للغاية؛ حيث واظب على التفتيش على جميع المصروفات بما فيها مصروفات القصر كي يحافظ على خزانة الدولة؛ وبصفة خاصة اتخذ تدابير غاية في الحزم لتوفير الأمن على طريق الحج، وقام بإعادة ترتيب هياكلِ أوقاف الحرمين. وبسبب سياسته المقتصدة بصفة عامة فيما يتعلق بالشؤون المالية بالإضافة إلى تفتيشه الدقيق على الفساد الإداري ارتفع دخل الدولة. كما تطور مكتب الإيراد السلطاني إلى وزارة مهمة في الدولة خلال عهده. ومن ناحية أخرى كان مصطفى خطيبا مفوها، وخطاطا بارعا، وقد حاول إتقان أدق تفاصيل شؤون دولته.

ولأن سابقيه محمود الأول وعثمان الثالث لم ينجبا أولادا فقد كان قدوم الابنة الأولى لمصطفى الثالث عام ١٧٥٩ وابنه الأول عام ١٧٦١ حدثا سعيدا مبهجا. ولما كانت السلالة العثمانية قد حرمت من إنجاب ورثة طوال أربعين عاما فقد كانت ولادة هذين الطفلين مناسبة لإقامة احتفالات دامت عدة أيام.

استمرت محاضرات "الحضور" (أي: حضور القلب مع الله) في عهد السلطان مصطفى الثالث، والتي كان قد بدأها

مسجد آيازما في أوسكودار الذي أنشأه السلطان مصطفى الثالث.

والده السلطان أحمد الثالث. وكانت تلك المحاضرات عبارة عن دروس دينية من القرآن الكريم تنعقد في حضور السلطان خلال شهر رمضان من كل عام.

تروي المصادر أن السلطان مصطفى الثالث كان يجوب العاصمة متخفيا خلال الحرب مع روسيا، ليصغي لأفكار الناس وأمانيهم، ثم يبذل قصار جهده لتلبية احتياجاتهم. كما حشد جميع موارد الدولة لإعادة بناء المدينة والمناطق المجاورة لها عندما ضرب زلزال عنيف مدينة إسطنبول في آخر يوم من أيام عيد الأضحى الذي كان يوافق يوم ٢٢ مايو/ أيار عام ١٧٦٦. وتشير المصادر إلى أن النفقات الحكومية على ذلك المشروع الضخم تجاوزت اثنين وعشرين ألف كيس من العملات الذهبية، وهذا كان مبلغا هائلا في ذلك الوقت. وأحدث الزلزال أضرارا بالغة بمسجد الفاتح ومسجد أبي أيوب والسوق الكبير وأسوار المدينة وبرج العذراء ومباني أخرى كثيرة. غير أن السلطان قام بتضميد الكثير من الجراح وبناء المدينة من جديد بفضل خزانة الدولة الممتلئة عن آخرها بسبب الإنفاق المقتصد لحكومته.

مسجد لالَلي في أوائل القرن العشرين (تصوير عبد الله برادَرْلَرْ).

وكان لدى السلطان مصطفى الثالث مشروعان آخران؛ فقد أراد أن يربط بين بحيرة سابانْجا -شرقي خليج إزميت- بالبحر الأسود، بالإضافة إلى شق قناة في السويس. لكن هذين المشروعين لم يتحققا بسبب المعارضة الشديدة من جانب رجال الدولة والجمهور الأوسع.

وبنى السلطان مساجد كبيرة لكنه لم يَسمح بأن يوضع عليها اسمُه بينما لم يعارض تسمية صغار المساجد باسمه.

ومن بين المساجد التي رعاها السلطان مسجدُ "مِهري شاه" المعروف أيضا باسم مسجد أيازْما بأوسكودار، الذي شُيد استذكارا لروح والدته الراحلة مهري شاه أمينة سلطان وأخيه الأكبر سليمان. وأنشأ السلطان أيضا مجمع مسجد لالَلي على الجانب الأوروبي من المدينة

درع السلطان مصطفى الثالث في متحف قصر "طوب قابي".

تكريما لشخص يدعى "لالَلِي بابا" وهو أحد الصالحين الذي كان يحظى باحترام كبير من جانب السلطان. ودُفن السلطان والولي في فناء مسجد لاليلي. كان السلطان محبا للشعر وكتب الكثير من القصائد بالاسم المستعار: "جهانكير.

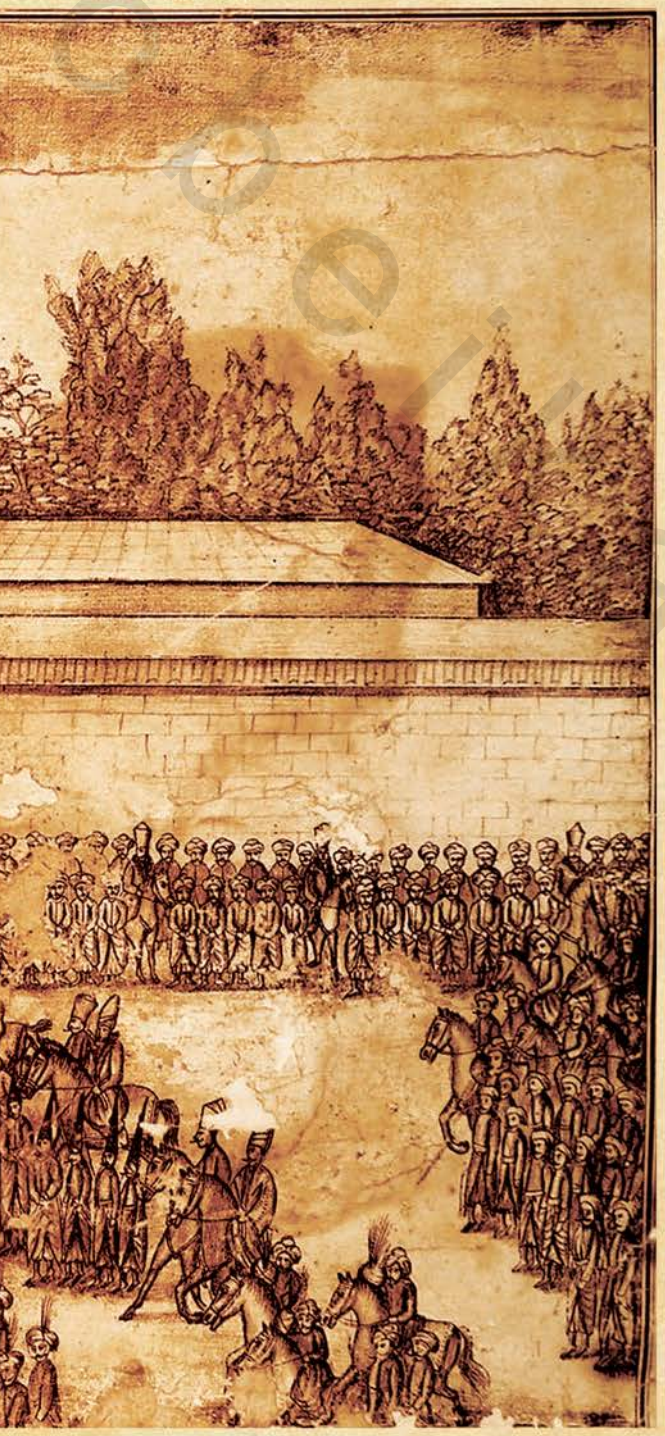

نافورة مياه أنيقة في الشُرفة السلطانية بقصر "طوب قابي"

حفر يصوّر السلطان مصطفى الثالث ممتطيا صهوة جواده أمام باب السلام، يعود تاريخه لعام ١٧٦٢.
وعند المرور من هذا الباب اضطر الجميع ما عدا السلطان إلى النزول عن خيولهم في الفناء الأول من قصر "طوب قابي".